

هـ للأستاذ أحمد أمين

«ها» انسانان متباينان ، لا يجتمعهما إلا أنى عرفتهما

أما «هو» الأول ، فنظيف الثوب في غير أناة ، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها ، ولا يتأذى من أنها زاهية تستلفت الأنظار - قد طبع على ما يود ، فلا هو جميل يقيد النظر ، ويفترق البصر ؛ ولا هو قبيح الشكل سمج النظر ، تتفاداه العيون ، وبلغفه الطرف ، لو عهد إليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله ، لأنه بأني تكاليف الجمال وتكاليف القبح كثير التفكير في نفسه ، كأن الله لم يخلق في العالم إلا هي ، وإن كان قد خلق أشياء بنفسه مركزها ، دائم المحاسبة لنفسه على ناصد منها للناس ، ودائم المحاسبة للناس على ناصد منهم لنفسه ، ففي نفسه محكمة منمقده باستمرار ، تطول فيها المرافعة ، ويشتد فيها الخصام ، وتكثر منها الأحكام ، والنقض والابرار - حدثني أنه إذا جلس في مجلس استمرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب ، كأن ذهنه « شريط ماركوني » ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها ، هل مست بشعور أحد ، هل ظلمت أحداً ، هل جرحت كرامة أحد ، ألم يكن غيرها خيراً منها ، أما كان يحسن أن يقال في مثل هذا الموقف غير هذا الكلام ؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يملأها ، ماذا يريد منها ، لقد جرح احساسى بها ، لقد كان يلتفت إلى عند قولها ، وما سبب ذلك والملاقة بيني وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه ، لا بد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا ، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدى ولم يتبين غرضى . فإذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعد الشريط من جديد ، ويطلق على الحوادث تعليقات جديدة ، ويفسرها تفسيراً جديداً ، حتى يدركه النوم ، وقلّ ألا يحلم بما حدث ، وقلّ ألا تأتية الرؤيا بتفسيرات جديدة. وتعليقات جديدة من أجل هذا يفتر من الناس ، ويفتر من المجتمعات ، حتى لا تكثر الأمثلة فيكثر عرضها ، والتعليق عليها ، فقل أن أجب

دعوة مع كثرة ما وجه إليه من دعوات ، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم ، فإذا اضطر إلى دعوة ذهب إليها كارهاً ، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها ، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها ، تفضيلاً للحساب العاجل على الحساب الآجل ، فقل أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات

أداه التفكير الكثير في نفسه إلى أن يكون عميق التفكير في كل ما يمرض عليه ، فإذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه ، وغاص في نواحيه ، واستخرج منها أدق الأفكار وأسمبها وأعقدها ، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس ، كثير الاطلاع ، تشغف بالثقافة الانجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها ، وسمع بعمق التفكير الألماني فكف على اللغة الألمانية حتى حدثها ، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسي وما فيه من دقة في تحليل المواطن واجادة الوصف ، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وتضلع من آداب اللغات الثلاث ، وعرف أشهر ما كتب فيها ، فإذا حدثك في أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع ، ومعرفة دقيقة هذا إلى لغته العربية ومعرفة بها كأنه متخصص فيها - ثم هو بعد لا يرضى عن نفسه ، فهو دائم الدرس ، دائب العمل ، كلما قطع شوطاً طامح إلى ما هو أرق منه ؛ فكانه ومطامحه كالفرنس وظله يجرى دائماً ليسبقه ؛ وهيئات أن يلحقه

وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول ، لا يعرف حقيقته إلا خالصاً ، إن جلس مع غيرهم فمعي جهول لا يشاركونهم في جدل ، ولا يفضى اليهم بمحدث ، يعرف مواضع السخف من قولهم ، ومواضع النقص في تفكيرهم ، ويتظاهر بأنه لا يبى ما يقولون ، ولا يزق لك ما يفكرون ويجادلون ، يتغابى وهو الذكى ، ويتعابى وهو الفصيح

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يمشيه عيشة نظيفة في غير ما ترف ولا سرف . عرضت عليه يوماً « وظيفة » يكاد ينال منها ضعف مرتبه فرفضها في غير تردد لأنه يرى أنه لا يصلح لها ولا تصاح له ، ولا تتفق ونفسه ، ولا يتقنها اتقان عمله الذى يقوم به ثم هو - غالباً - لا يحب رؤساءه ولا يحب رؤسائه ، فهو لا يجهم لأنه يتطلب فيهم كلاً لا تسمح به الدنيا إلا نادراً ،

اليه فننده ما هو أدق في ذلك وأعمق
هذه هي الدنيا وهذه هي الحياة ، وهل أنت آخذ من دنياك
إلا ما طعمت وما شربت وما لبست
وله كذلك حديث طريف عن النماء وأوصافهن فهو يجيد
الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد ، ولطافة التكوين ،
وبراعة الشكل ، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك ، ثم يتبع هنا
بالكلام على مناصراته وماشاهدته في حياته ، كأنه كان له في كل
خطوة حادثة نسائية ، وفي كل سفر عشق ، وفي كل مجتمع
غرام - والمشرق العفيف ، والمهوى المنرى والحب الأفلاطوني
ألفاظ جوقاء لا تدل على شيء إلا على جنون قائلها أو رياته ، ينظر
للرأة نظر الأفنى للمصفور ، وله من وسائل الأعراف ونصب
الشباك ، ورسم الخطط ما يمجز عنه القائد الماهر ، والصادق
الحاذق ، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من
الحركات والأفاعيل والأحاديث ما يستلفت النظر ، وإذا هو في
حديث جذاب مع من أحب

وإلى هنا ينتهي علمه الواسع وقدرته الفائقة

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق ؟ ليست إلا كلمات اخترعها
الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء . ولا بأس من استعمالها أحياناً متى
جلبت خيراً أو دفت ضيراً ، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون
أنهم يتمسكون بمبدأ ، فليس في الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل
« الناية تبرر الوسيلة » على أن تُفسر الناية بما يبي لا غاية غيري
فكن « وقدياً » في دولة الوفد ، و « شعبياً » في دولة حزب
الشعب و « حراً دستورياً » في دولة الأحرار الدستوريين ،
والمن في كل دولة أعداءها ، وتنق بمنافها متى كان هنا ينالك
« درجة » أو على الأقل « علاوة » ، واجمل مبدأك مشابهة
الزمان ، تقبل على من أقبل عليه ، وتدبر عن أدبر عنه - ولا تأخذ
شيئاً « جدأ » فما الحياة إلا لهو ولعب ، فإن استطعت أن تجعلها
كلها « مزرحة » أو « نكتة » فافعل فهكذا خلقها الله

صادقته يوماً في فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس
بشكله وإناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه ، وتحدث بصوت عال
قليلاً ، فإذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا ، وإذا الصوت يرتفع
شيئاً فشيئاً والتفات الناس يزيد شيئاً فشيئاً وإذا الحديث
جذاب ، وإذا هو محور من في المجلس وقيد أبصارهم وأذانهم

ويقيس الكمال بقياس محدود معين ، مع أن الكمال مناحي
مختلفة ، وقد يتسامح في نقص يستره كمال ، ويُتفكر ضعف
تسند قوة ، ولكنه في تقديره يحجم النقص ، ويكبر الضعف ،
ويريد في رئيسه الكمال صرفاً ، والقوة خالصة ، فكأنه يريد نبياً
أو إلهماً ، وأنى له بذلك ؟ فهو في قد لهم مستمر ، وتجريح دائم
- وأما هم فيكرهونه لأنه حنبلي في تصرفه - مزمت في
خلقه ، صريح لا يلف صراحته بلباقة ، شديد لا يعزج شدته
برقة ، التصرف عنده كلخط إما أن يكون مستقبلاً أو أعوج ولا
وسط بينهما ، لا يأمر بأمر رئيسه ولا ينتهي بنهيه متى خالف
قانوناً - والقانون عنده هو القانون الحرفي الذي لا يحتمل تفسيراً
ولا تأويلًا - من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء مختلفون وتنقل
من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائماً في نظرم اليه
ونظره إليهم - حتى لقد كان رئيسه يوماً ما أقرب الناس اليه
وأعزهم به ، ورجوت السعادة له أيام رئاسته ، فما لبثت أن
رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكرامية ، ثم كان أهدى له ممن
لم يكن يعرفه

أما « هو » الآخر فجميل الصورة ، ظريف الهيئة ، حسن
الخلية ، يمتلي البدن ، ريان الجسم ، واسع البطن ، أنيق اللبس إلى
آخر حد الأناقة ، دقيق الذوق في تناسب الألوان ، وتناسق
الأشكال ، حتى يمد حجة فيما يلبس وما لا يلبس ، وما يتناسب
وما لا يتناسب ، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع
فنان ، يحدثك حديثاً مستفيضاً عن خير الخياطين ومزايهم
وعيوبهم ، ومواضع الاجادة والعيب فيهم

وشيء آخر يجيد ذوقه ، ويجيد التحدث فيه ، ويجيد وصفه
ويجيد تقديمه ، وهو الطعام والشراب ، فإن أردت أن تعرف لونا
من الطعام لا يناسب لونا أو أردت حديثاً شهيماً عن طعام شهى
أو عن المائدة وكيف تنظم وعن بيوت مصر وما يجيده كل بيت
من الأصناف فهو في ذلك القى لا يبارى ، وله فوق ذلك العلم
الدقيق الواسع في صنوف الشراب ، فأبها قبل الأكل وأبها على
الأكل وأبها بعد الأكل ، وأي ألوان الشراب يصح أن تجتمع
وأبها لا يصح ، وأي أنواع الشراب تجيده بلاد فرننا وأبها
يجيده ألمانيا وأبها أسبانيا - بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة